## نظريات فى

# نشأة التطور الاخلاقى

للعربية الفضلى : السيدة نفلة الحكيم

تكلمت الكاتبة الفاضلة فى العدد السابق عن أن الاخلاق لا تتم الا فى العمل، ودعمت رأيها ببحاث طلية مستمدة من علم الحياة ، فتحدثت عن نشأة الكائن نباتا كان أم حيوانا ، دنيئا كان ام راقيا ، وأثبتت أن هذه النشأة انما هى الا حرب مع البيئة لا نجا فيها الا الاصلح والاقوى ، ولكن المدنية الفاسدة سطت على ميدان الفطرة والطبيعة ، فامتطى الجيد من ليس اهلا له ، وارتقى المناصب غير ذوى الخبرة والقدرة ، وفى هذا القال تتمة هذا البحث الممتع ؟ المحرر

ما الذى حمل رجلا كجون استيوارد مل J.S.Mill على طول المناداة بأهمية الفرد فى حد ذاته، وفى نفس الوقت كان يحمل حملة شعواء على أصناف الحكومات؛ حتى الديموقراطى منها ؟ لأنه كان يجهل قيمة النظام ؟ أم لأنه كان يظن أنه من الممكن أن تسير دفة الأمور فى أية بلد بدون حكومة ؟

كلا ! إنه أولا رأى أن وجود الحكومات ضرر لا بد منه؛ ولكنه رأى أيضا أهمية الفرد ومقدار ما تجنيه الأمم من الأفراد ، إذا ما أعملوا الفكر ووجدوا الجو المناسب للعمل الذى ينمى مواهبهم ، ويشجع ابتكارهم ؛ ولم يقع (مل) فى خطأ ( هيجل ) الألمانى الذى أنكر حياة الفرد إلا فى ظل الحكومات والدول .

فكان ( مل ) ينقم من الحكومات لمجرد اعتقاده بأن للحكومات نظما تدعو إلى توحيد الأعمال وسيرها على نمط واحد؛ مما قد يقيد تفكير الفرد ويحصره فى نواحى معينة، كى يتمشى مع روح النظام الحكومى ، فكيف بك يا (مل) الآن إذا كنت معنا ، وعلمت أن الحكومات فى الوقت الحاضر - حتى فى أرقى البلدان - سائرة إلى خطأ أكبر، إذ هى فى الواقع تشجع الفرد على الكسل وعدم إعمال فكره ، فتحمله بذلك على أن يصبح عالة على الأمة ، يمتص من دمها ولا يعوضها شيئا فى نظيره ؟

إذا فكرنا فى أحوال المحسوبية وغيرها مما أثقل كاهل ماليات الأمم؛ بالرغم من أنها تئن تحت أعباء أزمات مالية، وصناعية، وعلمية ، وفكرنا فى حفاظ الأفراد من معونة أمتهم - وسبحان من قسم الحظوظ - نجد هذا يتغنى ( كالزنبور) فى خلية النحل ، وذاك يبكى انهيارا ، وذاك ينتك فيه الفقر، والمرض، والجهل، وذلك ينهش فى أموال الأمة وليس له من وظيفة إلا مشاركته لنيره فى الهواء الذى يستنشقه .

كنت أتكلم إلى رجل ألماني في شأن الأزمة الاقتصادية في العالم، نتحدثنا في أمور عدة حتى وصل بنا الحديث إلى نقطة قرر عندها هذا الرجل: أن متاعب الأفراد ناشئة من أن العدد الأكبر من المصالح الحكومية يديرها فئة الكتاب: وهؤلاء مع أنهم يستحقون الشكر؛ إلا أن إدارتهم لا بد أن تكون ناقصة بحكم نقص معلوماتهم، أما الرؤساء فلكونهم يصلون أعلى مناصبهم بدون استحقاق، فانهم يصبحون على جانب عظيم من الغرور: ولا يعبأون بالأعمال، لأن المادة التي كانوا يسعون إليها قد حصلوا عليها بسهولة: فهم يجلسون إلى مكاتبهم لامضاء الأوراق فقط، ووضع بعض الملاحظات التي كثيراً ما توضع خطأ على الأوراق: لعدم اهتمام الرئيس بقراءة الأوراق وفهم المطلوب منها. ولقد صدق هذا الرجل فيما قال «لأن عدداً كبيراً من الأفراد في مختلف الأمم يعامل بما أسميه (الرفق المزيف) الذي يشجعهم على الكسل».

ألا إن هذه المعاملة في حد ذاتها منافية لما أودعت الطبيعة فينا: فالطبيعة قد أعدتنا للعمل وللتغلب على الصعاب في الحياة، فان نحن عشنا حسب وحي الطبيعة، فانما نعيش جسماً وعقلاً، والجهاد في الحياة هو أحسن أنواع الرياضة الطبيعية.

وصلت أعظم الأمم الآن، وأعني بها انجلترا إلى نتيجة عملية من جراء تشجيع العاطلين: فانها بعد الحرب الكبرى منحت مرتبات (حسب نظام THE DOLE) للرجال الذين فقدوا وظائفهم، كما أنها منحت الفتيات والنساء العاطلات إعانة أسبوعية حتى يجدن عملاً يرتزقن منه: فمع ما في هذا العمل من الخير - لأنه قائم على مبدأ راق - فانه لحصول بعض التهاون، قد شجع هؤلاء الأفراد على التكاسل وعدم البحث عن عمل.

قرأت فقرة من تقرير اللجنة الملكية المكلفة بدرس مسألة الضمانات الاجتماعية وملخصها:

قد بلغت النفقات الاجتماعية ١٩٢ مليون جنيه، أي نحو ٣٤ ونصف في المائة من مجموع ميزانية النفقات؛ فاذا أضفنا إلى ذلك معاشات التقاعد وفوائد الديون وغير ذلك، أدركنا فداحة المبالغ التي تنفقها انجلترا على أمور غير مثمرة.

على أن أهم الأبواب التي ترزح تحتها الميزانية الانجليزية: هي أبواب الاعانات المخصصة للعمال العاطلين، والآخذة في الازدياد من أسبوع إلى آخر: فقد كان مجموع هذه الاعانات ١٢ مليون جنيه في سنة ١٩٢٨، فبلغ في السنة الحالية ٣٦ مليوناً، وسيزيد إلى ٥٥ مليوناً في السنة المقبلة.

إزاء هذه النفقات الباهظة، وحالة الكساد: وتفاقم الأزمة الاقتصادية، رأت وزارة المالية البريطانية أن تقترح جعل المبالغ المقرر صرفها في هذه السنة: لاعانة العمال العاطلين، الحد الأقصى لما ينفق عليهم في المستقبل مهما بلغ عددهم: وفي هذه الحالة لا بد من حصول أحد ثلاثة أمور

(١) إما أن تنقص الاعانات فلا تعد تكفى لاعانة العاطلين؛ (٢) وإما أن تزداد المبالغ المفروض أداؤها على أصحاب الأعمال، على ما هو عليه الآن من سوء الحال؛ (٣) وإما أن يكلف ولاة الأمور المحليون فى المناطق الصناعية وغيرها بمد يد المساعدة إلى العمال الذين لا عمل لهم، بمقتضى إعانة الفقراء؛ ولكن هذه الحلول كلها تؤدى إلى نتيجة واحدة، وهى ارتفاع أسعار المعيشة ونقص الصادرات.

وبديهى أن خمس سكان انجلترا لا يمكنهم أن يعيشوا إلى الأبد على نفقة الحكومة ... إلى آخر ما ورد فى تلك الفقرة.

فاذا كانت هذه هى نتيجة عمل إنسانى كهذا فى بلد من أحرص البلاد على مصالحها، فكيف بالأمم الأخرى التى تبدأ بفكرة الانتقام من الأفراد على حساب مالية الأمة؟ لقد قدمت للقارىء فى العدد الماضى أنه من أثر جهاد الكائن أو الانسان فى المرحلة الأولى من حياته نشأ فى الجسم فضيلة المثابرة على حل مسائل ومشاكل الحياة، مع إخضاع أعضاء الجسم ليتجه فى جهات خاصة، تتناسب مع وظائفه للتباينة: كما أنى بالغريزة فى هذه المرحلة الفكرية تخلى طرفها نوعا ما، وتعطى القيادة للعقل لترى إذا كان سيحسن التدبير أو يسيئه، فلم لا نعطى العقل فرصته وندعه يتعلم ويرتقى من تجاربه الخاصة؟ لم نشل حركته ونعتبره فى مهده بذلك العطف المزيف او الجاملة المرذولة؟

إن عطف الأم على ابنها الذى يؤدى إلى سلبه ميزة العمل العقلى لهو جريمة شنيعة، والرئيس الذى يجامل فى العمل إنما جريمته أكبر فظاعة، لأنه يحرم الأمم من مجهودات الأفراد، ويعودهم التواكل، مضافا إلى ذلك ما يحصل من التعدى على مبدأ العدالة القوى.

ولا شك أن حضرات القراء يعلمون أن مبدأ المجاملة ومبدأ العدالة خصمان لا يجتمعان؛ فقد علمتنا الحياة فى العمل والوظائف أن الرئيس الذى يجامل شخصا لا بد فظالم الآخر، وميت المواهب محسوبه؛ والشخص الذى يظل معتمداً على تفكير غيره لا يلبث أن يعود إلى مرتبته الأولى. وماهذه؟ (إنها الحيوانية - بلا ريب - التى يعمل فيها حسب وحى الغريزة لا العقل). ومع أن للرحلة الحيوانية انتهت إلى طلوع فجر العقل، بل وأوصلته إلى مرحلة - كما قدمت - أخذ الجسم فيها والعقل يتميزان بفضيلة المثابرة على الكفاح وحل المسائل، أضف إلى ذلك ما تنتجه عملية التفكير من التمييز بين الأشياء، وايجاد أوجه الشبه والخلاف بينهما، والوقوف على نسب الأشياء بعضها لبعض؛ فيدرك الانسان من حقائقها الكثير، وعليه فكلما استمر الجهاد والتغلب على الصعاب، كلما انكشفت للعقل أسرار الكون، وبذلك يصل الانسان الى مرتبة سيطرة العقل بالمعنى الصحيح على الجسم ونزعاته، إذ هو يخضع الشعور كى لا يقف فى سبيل العمل المراد تأديته بناء على اختيار مبدأ خاص؛ نعم قد تثور فى نفس الانسان عوامل مختلفة عند

القيام بعمل من الأعمال : كشعور الملل ، أو الحقد ، أو اليأس والاستسلام ، أو الانانية ، وما إلى ذلك ؛ فاذا لم يسيطر العقل فى هذه الأحوال ، فقليل أن يصل الانسان إلى غاية منشودة عن طريق شريف ؛ لأن جميع الأعمال محفوفة بالصعاب ، وفى إخضاع الشعور لسلطان العقل مران على كبح جماح النفس الحيوانية ، وإعطاء المكانة الأولى للنفس الراقية العلوية ؛ وهنا نجد حلقة الاتصال بين نتيجة هذا التحليل ، وبين نظرية الصوفية ؛ من حيث تقسيم النفس : بالأمارة ، واللوامة ، والممتحنة ، والملهمة ، والمطمئنة ، والراضية ، والمرضية .

وقد رأيت أن أشير إلى مبدأ الصوفية ، لأن هذا التقسيم إنما هو نتيجة عمل فكرى أعقبه تحليل نفسى ، ليكن ما يكون إن خطأ أو صوابا ، ولكنه مثل للصوفيين نتيجة قبلتها عقولهم واطمأنوا إليها واسترشدوا بها فى حياتهم الفعلية ، فوجه الشبه هنا منظور إليه على اعتبار النظريات التحليلية السابقة من حيث إنها سلسلة تدرج إلى الرقى فى كفاح النفس ومغالبة الظروف المحيطة للوصول إلى الأفق الأعلى من مراتبها ، ولذلك فالعمل والتفكير هما خير الطرق للتهذيب .

ومبدأ هذه السلسلة من حيث التدرج والرقى ، يضع الأساس الأول لفضيلة المثابرة ، وهنا يصح الانتفاع برأى أفلاطون القائل : بأن الفضيلة تأتى عن طريق العادة ، إذاً يتضح أن من نتائج فضيلة المثابرة تكوين فضيلة أخرى هى فضيلة الشجاعة والاقدام ؛ لأن الفوز مع المثابرة يشجع على التغلب على جزء آخر من الصعاب ، فما كان يصعب على النفس مغالبته فى المبدأ يصبح سهل التناول فى الكفاح ، ويقوى العزم على مواجهة ما هو أكبر منها خطراً ومسئولية ، وبنجاح الانسان فى اجتياز الصعوبات تتولد فيه فضيلة الاباء ، والاباء هو أن يربأ الانسان من أن يستحل لنفسه ما اكتسبه غيره ؛ فيعرف لنفسه حقها ؛ ولغيره حقه ، ولا يركن أو يعتمد على أحد ؛ وبذلك تكون شجاعته موجهة لما هو فى مقدوره ؛ ( وهذا يزيل منه رذيلة الغرور والاقدام على ما لا يستطيعه ) . هذا هو ما أقصده بالاباء فى معناه العملى ، والعاقل من قاس مقدرته على مقدرة غيره واعترف بالحقيقة ، فالاعتراف بالحق فضيلة وإباء .

ونتيجة الاباء تؤدى إلى فضيلة الثقة بالنفس إلى حد معين ؛ وهذه تبعد الانسان عن التماس المعونة من الآخرين بلاحق ولا موجب ، وتربأ به عن إذلال نفسه فى الرجاء وإخضاع عزتها إلى ما لا يلائم كرامتها ؛ لأن حق النفس يحتم - منطقيا - أن ينحصر فى نيلها ما هو مشروع لجهدها ، لا على أنه مكافأة لم تكتسبه بالفعل .

إن الانسان إذا نجح فى مساعيه يكون قد حقق الغاية ، التى عمل لها على مبدأ اقتناع بصحته قبل البدء فى العمل ، ويكون بذلك قد اكتسب ما عمل لبلوغه بشرف ونبل ، وإن هو أخفق من حيث النتيجة ، فقد اكتسب الخبرة ولم يعرض بكرامته إلى الهوان ؛ ومعنى هذا أن الأجر يساوى الجهد ، وفى هذا أكبر معنى للعدل .

ومن النجاح والاخفاق فى ميدان الحياة تتولد فى النفس فضيلة الصبر، فضيلة الاعتراف بمواطن الضعف، وبذلك لاتعرض نفسه بداء الغيرة ممن يزوه أو يبزونه فى الحياة فى ناحية من نواحيها؛ لأنه بخبرته للأمور ومعرفته لمقدار ما تتطلبه من مجهود، يستيقظ فيه شعور تقدير الآخرين، فيمتدح فيهم شجاعتهم ويحترم مواهبهم ومؤهلاتهم، وبذلك تشفى نفسه من داء الحقد، ويتحلى بفضيلة العدل؛ فلا ينتصر إلا للمستحق؛ لأنه يرى نوعا من السعادة فى تأييد مبدأ العدالة لذاته، وهو إن تقم ممن ينال ما لا يستحق؛ فما ذلك لأنه يحقد عليه فى شخصه، وإنما لأن شعور العدالة الذى بنفسه يتأذى لاذلال العدل فى ذاته، دون تأثر بالعوامل الشخصية، ويمكن أن يقوم البرهان على صدق هذه الظاهرة فى كثير من حوادث الحياة: فمثلا إذا سمعنا بأن أحداً جد واجتهد؛ ثم تغلب عليه غيره بدون وجه حق، فاننا نتألم مع الشخص المظلوم، ونثور ضد الظالم، لامراعاة للأشخاص ولكن مراعاة للعدالة.

فمثلا بعض أبطال الروايات الذين لا يقيهم إتقان الحرفة من تهمة السامعين، لأن أشخاصهم تمثل الظلم والخيانة، وقد يختفى ضعف الممثل إذا كان يمثل دور العادل أو الأمين، إذاً فالخصومة الشريفة هى التى تقوم دفاعا عن مبدأ، لا بالنسبة للشاحنات الشخصية.

مما تقدم يتضح أن الذى خبر هذا كله، وتكونت فى نفسه هذه الفضائل، وانمحى منه ما يعادلها من الرذائل، يصبح شخصا حكيما يرى الأشياء على طبيعتها، ويقدرها بتقاديرها الحقيقية، فلا تثور نفسه لعوامل أو حوادث هو أدرى بنتائجها من غيره، ولا تهزه اضطرابات نفسية هو أعلم بطبائعها من سواه، ولو أنه فى حالته هذه يرى أمام الآخرين بحالتين:

١ — إما الجبن لأنه لا يواجه الحوادث بنفس الحدة التى لا يواجهها بها قليلو الخبرة (والحدة هنا يعدها قليل الخبرة شجاعة) وهكذا الجهل بالأمور يحل الرذيلة محل الفضيلة.

٢ — وإما الغطرسة لاستخفافه بالصعاب، حالة أنه ينظر الى العالم نظرة عدم اكتراث لأنه فهم من أسرار الحياة، ومميزات البشر، وسنن الطبيعة والوجود، ما جعله يقابل كل جديد بجأش ثابت، ولا يسترعى انتباهه شىء من مظاهر الحياة إلا ما احتاج فى ذاته إلى تقدير يقبله العقل باعتدال؛ فتنشأ فيه فضيلة الاعتدال مكملة لكل ما سبق من الفضائل، وهى فى نظرى أم الفضائل التى يعتمد عليها الانسان فى حياته.

ومن هنا يمكن التصديق بنظرية سقراط، من حيث إنه أفضل مرتبة يصل إليها الانسان، هى التى لا يمكن فيها إثارة النفس بعوامل عارضية، وكذلك عبر أرسطوطاليس عن نفس المعنى بقوله: إن أحسن حياة يصل إليها الانسان هى حياة (النيوريا) أى حياة الفكر التى لا تثور فيها عاصفة العواطف، فكل ما نمر عليه فى الحياة نجد له مكانته بين باقى خبراتنا، ومن ذلك نصل إلى الحد المتوسط، حيث نرى الأشياء فى نسبها المعتدلة، ونعطيها قيمتها المناسبة، ونشعر نحوها الشعور

القانونى بدون إفراط أو إسراف يدعو إلى التهيج، وبدون نقص أو بخل يدعو إلى عدم التوازن والارتباك، وعليه فتكون أفضل حال يصل إليها الانسان، هى تلك التى يظهر فيها هدوء الشعور بعد طول الخبرة، ومن هنا نصل إلى: مرتبة النفس المطمئنة، فالراضية، فالمرضية، ولو على مبدأ الصوفية ؛ وهذه النظريات يصح أيضاً تأييدها بمباحث علم النفس، إذ أن كل جديد وكل غريب يسترعى الانتباه ويثير الشعور، ولكن الأشياء المألوفة والتى حل الفكر رموزها مرة ما، يحتمل أن يترتب عليها ، ما يحتمل أن تصل العقول البشرية الى معرفته منها، فانه يصبح من الأشياء العادية، فلا يتهيج له الانسان، وهنا نجد حلقات الاتصال بين العقول للفكرة ، فمعظم العلماء الذين فكروا فى هذه الناحية، (أى ناحية التطور الانسانى والنشوء الأخلاق ) سواء أكان تفكيرهم بدأ عن طريق البيالوجى، أو عن طريق الصوفية، أو الفلسفة، وعلم النفس الخ، فقد وصلوا جميعاً إلى نتائج متشابهة من حيث الرحلة الأخيرة، ألا وهى طمأنينة النفس، وهى بحق المرتبة التى يظهر فيها رقى الانسان الحقيقى، ومقدار الثقافة التى اكتسبها، والتى تجعله ينطق بحكمة ويتكلم بعقل.

لقد قلت الحكم فى عهدنا لعدم إعمال الفكر ، خذوا مثلا لبعض الحكم الجارية مجرى المثل (صاحب بالبن كداب ) هذه حكمة لا يصل إليها إلا من جرب واستنتج، وهذه الحكمة بعينها تعب فى إثباتها أكبر علماء النفس، فقاموا بعمل مباحث طائلة حتى وصلوا فى النهاية إلى أن الانسان لا يستطيع القيام بعملين فى وقت واحد، إلا إذا عمل أحدهما بطريقة آلية، لأن قسمة الانتباه غير ممكنة .

خذوا حكمتين أخريين هما :

١ — ( فى التأنى السلامة، وفى العجلة الندامة) — ٢ — ( خير البر عاجله ) .

نفس التناقض فى هاتين الحكمتين على قيمة الخبرة، وما تؤدى إليه من استنتاجات مقنعة فى الظرف الخاص ، هل يصل الى تلك الحكم وغيرها متقاعد كسول؟ كلا ثم كلا، إن العاطل لا تربى له أخلاق، ولا تصدر عنه حكمة، وهو إن استعمل الحكمة، فانما يقوم بها على سبيل التقليد كالببغاء .

ها نحن قد تتبعنا أطوار نشوء الكائن ووجدنا أن وصوله إلى المرتبة النهائية، مرتبة الهدوء النفسى، متوقف على مجهوده العملى .

ألا فلنعمل، ومن جد وجد، ولكل مجتهد نصيب ، العمل العمل به تحيا الأفكار، وعلى طريقه ترتقى الأمم وتحيا الجواهر باستعمالها، فجوهر العين مثلا ينعدم نوره إذا توقف إبصاره، بأن سادت الظلمة ؛ ألا وإن نور البصائر متوقف على التفكير وتتبع الحقائق، فدعونا نعش للحق بالعمل: فهو الرياضة الطبيعية المشروعة لبنى الانسان، وبه يسترد حريته ويحيا حياة مجيدة ؟

نظلة الحكيم سعيد